

الأم المبتوح حشنة

لِلْقَصَصِيِّ الْفَرَنْسِيِّ دِي مُوْبَاسَانَ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ كَمَالِ الْحَرِيرِيِّ

النافرة . كل شيء
في « فرجيل » كان
يتصبى مشاعر طفولتي
الساذجة ، ويستهم
أحاسيس صباي
الأنجى ، خصوصاً
ذلك الجبل الذى يتشح
بالبيطان الشجرى ،
ويتحلى بالرياض

الزهراء ، ويتقلد بعقود النهر الفضية ، وأساور
الغدُر البراقة ، كأنه غانية أملود ، بحلها وحلها
ومطارفها وشفوفها

لله كم كنا نلهو بصيد السراطين من شقوق
الجداول ، وقنص أسماك الحيات من غمر الماء !
وكم كانت سعادتنا سماوية ونشوتنا ملائكية ، حين
كنا نستحم عمراً في ماء الجدول ، بين أسراب
البط وطوائف الكاكي . ولكن واسفاه كل
ذلك انقضى وانطوى في غيابة الأربعين عاماً

وأنا في ضحوة هذا النهار أسير سريع الخطو
رشيق اللقطة كأني الجدي الطافر ، وكلباى أمانى
يسرحان في الأرض ويرودان أما كن القنائص
ومواقع الطيور ، وعلى بعد مائة خطوة كان صديق
« سرفال » يدوس بقدميه الكبيرتين حقلاً من
شجيرات « الشوكي » الممتدة أمامنا . وكنت مجتهداً
في تنجية كتل من العليق التى كانت تحم غابة
« سادر » من كل جهاتها حين تبصرت كوخاً
متهدماً متهاقناً أسوداً سحماً أكل الدهر عليه وشرب ،
وما كدت أثبتته حتى عراني لرؤيته هزة ورعشة .
نعم لقد ذكرته جيداً : فقد كان في جلسته وموقعه
(٥)

كان قد مضى على رؤيتي ضاحية « فيرون »
أربعون سنة حين أتت إليها هذا الخريف للصيد
اللاهي والهو البريء والد كرى الحلوة . وقد زلت
ضيقاً على صديقي « سرفال » بعد إذ أعاد بناء قصره
التهدم من غارة الألمان

لشد ما استرقني جمال هذا الريف ووسوسة
رياح الخريف ! ففي هذه الأمكنة الحبيبة أجواء
سحرية وآفاق شعرية ، ومسارح لذكريات طفولتي
عزيزة على أثيرة عندي . ثم فيها بعد ذلك المناظر
الطبيعية البهيجة ، والمشاجر الخضرة الأريجة ،
ومفان النظر والفؤاد والسمع

أندري ما يجتذبننا من هذه الأمكنة التى درجت
فيها طفولتنا ونما صباها ؟ ذكريات عذاب حول
نبح مسجور كنا تنصيد فيه السمك ، أو جلسات
إلى دوح مشجر نصنى فيه لغناء الطير ، أو قفزات
مرحات فوق نهير دافق صافق نفوس فيه بأقدامنا ،
أو صعدت إلى ربوة مشرفة مخضوضرة بالنبت
يانعة الزهر مفعومة بالمطر . كنا نتجارى على
مصاعدها فرحين ، أو نتبارى على مسالكها الزلقة
لاهثين ، كأننا الجداء المرحا الطافرة ، أو الظباء الرائعة

الجليدة ، وملاحها القروية الجافة — أشبه ماتكون بولدها وزوجها . لم يكن أحد منهما راق ليعجبها ، ولا شيء منهما راع ليضحكها أو يطربها ؛ فهي الدهر متعبة منقبضة ، بأسرة الوجه راكدة الريح ...

على هذه الحال كانت تقضى حياتها الجافة الرتيبة في كوخها المتأبد الربد . حتى إذا تردى كوخها بردائه الشتوى الأبيض أخذت تختلف مطلع كل أحد إلى القرية تشتري الخبز واللحم ، وتبتاع الخضار والفاكهة ، ثم ترد في سرعة إلى كوخها وتسلم نفسها إلى عزلتها ووحدتها ؛ وفي بعض الأحيان حين كانت تخشى وثبة ذئب عاو أو غارة ضبع طاو ، كانت تتقلد بندقية ولدها الصدئة العتيقة وتمشي بها متحاملة مكدودة ، محنية القامة ، مرتهكة المفاصل منهجرة الصدر ، تقتلع أقدامها اقتلاعاً من أبسطة الثلج ، بينما فوهة البندقية تمثت بمصاصة سوداء حول رأسها ، تجتهد الفوهة عبثاً في تنجيتها عن شعورها البيضاء المشتعلة شيئاً ، والتي لم تكن تحل عين بشرية برؤيتها مكشوفة

ففي ذات يوم أقبل « البروسيون » إلى القرية غازين ظافرين ، فتحتم على كل بيت أو كوخ في القرية استقبال هؤلاء الأضياف الكرام ... كل بما تملك يمينه وتوسع له ثروته ؛ وإذا كان الظن يتجه إلى ثروة صاحبنا الوفيرة وتقودها المدفونة ، فقد أُجبرت على ضيافة أربعة جنود فتيان من الألمان ، تحمر الوجوه سُقر الدقون زُرُق العيون ، غلاظ شديدى الأسر ، مكتمزى اللحم والشحم على رغم شدة الحرب وهولها وعمر كما أجسام الشباب برحائها ؛ وعلى أنهم في حمى النصر ونشوة الغلبة والعزة ،

على الحال التي كنت تركته فيها لآخر مرة سنة ١٨٦٩ منفرداً بمنزلاً طيب الموقع تكتنفه شجيرات الكرم وترتع في باحته وأمام بابه أسراب الدجاج . فحين شاهدته الآن بهيكله المائل الحرب وجسده الضارع الحزين ، انسربت من عيني شتوني وهاجت في صدري شجوني . فذكرت متألماً يوماً كنت فيه ساعياً لاغياً مما أجهدنى الصيد ، فدخلت هذا الكوخ لأول مرة فقدمت لى صاحبتة قدحاً من نبيذ . كما ذكرت أن صديقي « سرفال » اقتص على حكاية مكانه فقال : أما رب هذا المسكن فقد قتله حارس من حراس الأحراج في يوم كان يستلب فيه غلة جاره ، وأما الولد فلخشونة طبعه وشراسة أخلاقه ووحشية مزاجه فقد كانوا يلقبونه بالولد « المتوحش » هو وأمه ؛ ولطالما أتلف الزرع وسرق الدجاج وأفسد الحرث والنسل . وهنا خطر لى أن أعلم ماتم في أمر سكان هذا الكوخ المهجور فنادت صديقي وطلبت منه سرد قصة أهله فقال :

حين أعلنت حرب السبعين تطوَّع « الولد المتوحش » وهو في سنته الثالثة والثلاثين ، في عداد من تطوَّع من شباب القرية ، تاركاً أمه المعجوز وحدها في كوخها المنعزل ، وليس وراءها من يعولها غير صباية من مال تعتاش بها

كانت وحيدة منهوذة في هذا الكوخ المطرَّح النائي ، ومع هذا لم يكن الخوف ليعرف مكاناً من قلبها ولا سبيلاً إلى نفسها ؛ إنما يخاف ويفزع الخرد الغيد والحسان الأمايلد ، اللأى قلوبهنَّ هواء ، وأعصابهن خيوط عنكبوت . أما « الأم المتوحشة » فكانت — بقامتها المتأدة المديدة ، ومعارفها الخشنة

ووطنها . وليس ذلك بدءاً من قلوب القرويين الأطهار
فالتعصب القوي لم يدخل قلوبهم ، والبغض الوطني
لم يجر في دمائهم . فذلك كله يكاد يكون وفقاً على
قلوب أهل المدن والأمصار . إن أهل القرية السذج
المساكين ، وسكان الريف الخضع الخاشعين ، الذين
يتحملون الغرم وغيرهم ينعم بالغم لأنهم فقراء ،
والذين يطيون نفساً بلحومهم الحية الغريضة كي
تحرقها نار المدافع وتسفدها جواحم القنابل ، لأنهم
كثير عديدهم في زعم أهل المدن ، والذين يتألمون
من الحرب أشد الألم ويتعذبون أهول العذاب
ويعنون منها بكل طاخية دهباء وكارثة ظلماء لأنهم
مستضعفون في الأرض ، لا يملكون لأنفسهم
وذويهم نفعا ولا دفعا ؛ أقول إن هؤلاء المساكين
الأخيار ليسوا أصحاب أمراض حربية وطبائع جهنمية ،
فلا الموت للذياد عن الوطن المفصوب مما يعتدونه
شرقا ونجارا ، ولا نحر الحياة والشباب عندهم بالمآثر
التي تستأهل إلقاء الأجسام في النار

كان الناس يتحدثون في شأن هؤلاء الجنود
الأربعة وما يلقون عند الأم المتوحشة من رعاية وحذب
وإكرام . ففي ذات صباح بينما كانت صاحبتنا خالية
لنفسها ووحدها في كوخها إذ أبصرت في السهل الممتد
أمامها رجلاً يقصد منزلها . وحين اقترب من الكوخ
عرفت فيه موزع بريد القرية . فلما شاهدها تناولها
ورقة مطوية وقال لها : إنه لكتاب يهملك ياسيدتي .
فأسرعت العجوز بإخراج منظارها الذي تستعين به
على خياطة ملابسها ثم قرأت :
سيدتي المتوحشة :
يسوؤني أن أحمل إليك أنباء فاجعة أليمة لانتهيا

فقد كانوا نهاية في الظرف والدماء ولين الجانب ،
يلقون الأم المتوحشة بالوجه الباش واللسان العذب
واللهجة العطوف . ثم هم كانوا لا يألون جهداً في
إراحته وتوفير تقودها وتقليل إنفاقها عليهم ، ولا
يكافونها عمل شيء أو تهيئة حاجة يستطيعون
الاضطلاع بها دونها . وعلى الجملة فقد كان إصلاح
الملبس وكى الثياب وتنظيف الأقمصة وغسل الأواني ،
وأخيراً مسح زجاج النوافذ وتكسيها حطاب التدفئة
أموراً منوطة بهؤلاء الفتيان الناشطين الذين كانوا
يرعون هذه الأم المتوحشة ، رعاء الأبناء البررة
أهمهم الحبيبة العزيزة . على أن ذلك ما كان يمنحها من
تذكر ولدها الراحل بقامته الطويلة المحنية وجسمه
المهزول الأعرج وأنفه المحدث الأعقف ، وعينه
الرمادية الدكناء وشاربه الغليظ الكث الذي طالما
نما وربا حول فمه وشفتيه ، كغابة كثيفة مشتجرة ؛
كانت دأمة التسأل عنه ، كثيرة التاهف لرؤيته ،
لا يمر يوم دون أن تلقى واحداً من هؤلاء الأربعة
بهذا السؤال :

— ألا تدلني على معسكر الفرقة الثالثة والعشرين
من الجيش الفرنسي ؟ والهفتاء على ولدي لقد تطوع
في هذه الفرقة . فكانوا يجيئونها برطانتهم الألمانية :
لا نستطيع ذلك ولا نعرفه . وإذ يذكرون أمهاتهم
الروعات الجازعات ينتظرن إياهم في البلد القصي
تدركهم على هذه الأم اللئعة المسكينة رحمة فيسرون
عنها اللفة ويرفون بعض ما تجد من الشجو والحنين .
لهذا ولطف والظرف اللذين كانت تجدهما في
هؤلاء الجنود الأربعة ، كانت « الأم المتوحشة »
تحبهم وتحنو عليهم بالرغم من أنهم أعداء بلادها

بعض من الألم أطراف شاربه الكثر ، كدأه
حين يفضب ويهيج

علي أن سؤالاً جديداً تهافت على رأسها :
ما عساه صانعين بجسده الدامي المقطع ؟ أيعودون
به إليها كما فعلوا بجسد زوجها أم سيخلفونه جزر
سباع الطير وضواري الوحش ؟

وهنا بلغ سمعها خفق نعال جنودها ، يصخبون
ويجلبون بعد عودتهم من القرية . فغيبت الرسالة
المشثومة في صدرها . ثم إنها ملكت عنان جأشها ،
فاصطنعت هيئة الهدوء والجد واستعادت سحنها
الاعتيادية المألوفة . كان الأربعة في لهو وسرور
وقصف ، وقد عادوا من القرية ظافرين بأرب
حنيد طرى سرقوه ولا شك من احد منازل
القرية . وحين بصروا بالألم أشاروا إليها بلكنتهم
المألوفة : أن أعدى لنا حساء لذيذاً شهيأ . فهرعت
الأم تهبيء الطعام وتمد مائدة الإفطار . ولكن
شجاعها خانتها حين تحتم عليها ذبح الحيوان المسكين .
لم تكن هذه المرة الأولى التي تراول فيها ذبح أرب
أو دجاجة . فقيم ترتجف يداها ويخفق قوادها ؟ !
أخيراً تمت عملية الذبح والسلخ . فظهر اللحم أحمر

تسيل دماؤه الحارة القانية على يدي المعجوز فيسري
لمرآها الخوف والهول في عروق المرأة ، وترتعد
من قمة رأسها حتى إخص قدمها ، ولاسيما حين
تمثلت في جسده الدامي ولدها الفقيد وقد قتلت
القبلة نحر صريماً للبدن والفم

ويتم نضج الحيوان ، فيتخذ الأربعة مجالسهم
حول المائدة وتجلس صاحبتنا في مكانها المعتاد ،

نفسك المذبذبة لسماعها : لقد قتل ابنك ياسيدتي .
انفجرت عليه قبلة جهنمية فشطرته قسمين ، والهفتاه
ولما كنت بجانبه في خط القتال وكان قد رجاني
أن أحمل أخباره إليك إن أصيب بنكبة أو أذى
فقد أخرجت من جيبه عقيب الفاجعة ساعته
لأسلمها إليك حين تنتهي الحرب . وتقبي تحياتي
وتعزياتي الخالصتين :

سيزار ريفور

جندى من الفرقة الثانية من الجيش الفرنسي

وفي ذيل الرسالة تاريخ كتابتها وهو يعود إلى
ثلاثة أسابيع

وقفت الأم أمام هذه الكارثة مأخوذة والهة حيرى ،
لا تحير كلاماً ولا تذرف دمعاً . فقد كان مصابها
يعز على العبرة . ثم أنشأت تردد بينها وبين نفسها :
هو ذا ولدي الحبيب لاقى مصرعه في مطاوى الغربة ،
بعيداً عن أمه الرؤوم ، فوالهفتاه عليه وعلى شبابه
الغض وصباء الشارخ . ثم رحما الموقف وأمجدها
الدمع فأذرفت الدموع الغزار وصعدت الزفرات
الحرار . حتى إذا ثابت إليها نفسها وعالودها عازب
حلمها ، أخذت تذكر في حسرة ولهفة أنها لن
تقبله آخر الأبد قبلات أم حنون ، ولن تحتويه
بذراعيها ولن ولن ... يا لظلم الإنسان ! ألم يكف
حراس الأحرار قتل زوجها المسكين حتى قفاهم
الألمان القساة بولدها الوحيد يشطرونه شطرين
كأنه لعبة من سكر بين يدي طفل أرعن . ثم خيل
إلى المرأة المرزأة أنها تراه وسط المعمة ، مفصول
الرأس عن الجسد بارز العينين من محجرهما .

السلم الصناعي الذي اصطنعته المعجوز لا بلاغهم
الغرفة الجديدة ، وما كادوا يفعلون وينلقون وراءهم
باب سقف الغرفة الجديدة ، حتى انتزعت الأم
التوحشة ذلك السلم الجبلى الذي يصلهم بياحة الدار ،
ثم انسلت ففتحت باب الكوخ الخارجي ، وعادت
تحمل حزم التبن والمهشم لتلأبها صحن المطبخ .
وكانت تروح وتغدو إلى غرفة الناعمين في حذر
ورقة لتطمئن إلى استغراقهم في النوم . وإذا سمعت
غطيطهم المدوى الصاحب كأنه الأنغام المشوشة
الناشزة تنبعث من الأوتار المتراخية المعطلة ، ارتدت
إلى المطبخ فألقت في الموقد المستعر حزمة من المهشم
وأعقبها بأخرى من التبن ؛ وحين تأكدت من
اشتعالها وسرت النار في الأكياس المجاورة غادرت
المطبخ ، وراحت تتأمل عملها في سكون وجود
ووحشية . وفي بضع دقائق توهج المكان بالسمير
المتأجج ثم استحال الكوخ بغرفته ومطبخه ، إلى
جحيم يتضرم وأتون يقذف باللهب والشرر . ثم
أخذت نلسنة اللهب تندلع من النوافذ والشبابيك
كأنها ألسنة الشياطين ، وهنا انبعثت من الكوخ
صرخات شاكية ضارعة ، أعقبها أنات وتوسلات
حزينة مبكية ؛ ثم انقطعت الأنات المدوية ، وخفت
الصرخات العاوية ، فما عدت تسمع غير فرقعة
الأخشاب وهي تثر في الفضاء ، أو فرقعة الجدران
وهي تهاوى إلى الأرض . أخيراً انفجر الكوخ
وتصدع هيكله وسط سحب داخنة سحباء وغيوم
مشتعلة حمراء . فكنت ترى الثلوج في البرية ، وقد
تألفت وتوهجت من انعكاس النار عليها ، كأنها
العروس الرعوب ، ارتدت حلة ناصعة بيضاء مطرزة
الحواشي بالشرائط الحمر

لا تشتهي طعاماً ولا تسبخ شراباً ، بينما أحبابنا
يردزون اللحم الغريص ويشرقون بالنبيذ المعتق
الأحمر غير حافلين بها ولا ملقين إليها بالآ ؛ على أنها
كانت تتناوبهم يبصرها الحين بعد الحين ، وقد هيأت
في نفسها أمراً . وعلى حين فجأة فاجأتهم صائحة :
— أليس غريباً أنى وقد مضى على إصافتكم
شهر لم أعرف أسماءكم بعد . فأدرك الجنود بعد لأي
ما تعنيه الأم ، ثم أعلنوا أسماءهم كل بدوره ، ولكن
ذلك لم يقنعها ، فرجتهم كتابة أسمائهم وأسماء أسراتهم
ومحل إقامتهم في ورقة خاصة . فأذعن الأربعة
لشيئها ثم ناولوها ورقة بما ابتغت ، أخرجت لقراءتها
منظارها الممهود ، وجعلت تنظر إلى خطوطها الغريبة ؛
وما إن تأملتها برهة حتى طوت الورقة وأخفها
دون ثيابها بجانب رسالة ابنها الفاجعة . فرغ الأربعة
من تناول الطعام فأهابت بهم قائلة :

ساعد لكم شيئاً تحبونه ، ثم طفقت تخرج من
الغرفة التي ينامون فيها أكياس المهشم وأكياس
التبن ، وحين سألوها عما تبتنى من عملها أجابتهم :
— البرد قارس والجو بارد وسأبنى لكم من
هذه الأكياس غرفة تنعمون فيها بالدفء اللذيذ
والنوم الهنيئ . فأقبلوا فرحين يساعدونها في
تكديس الأكياس وتعميم الجوالق . حتى تم لهم
بذلك غرفة ذات جدر أربعة رجتهم الأم أن يرقدوا
فيها ايلتهم قارين دافئين هانئين

وفي الفد كانت دهشة أحدهم بالغة ، حين شاهد
الأم تعيد سيرة الأمس فلا تتلمظ طعاماً ولا تمد
يدها إلى صحيفة ، ولما سألوها عن سبب امتناعها عن
الطعام اعتذرت بضعف الشهية وعناء العمل ، ثم
أضرمت ناراً لتصطليها وصعد أحبابنا الأربعة

— هذه رسالة نبي ولدى فيكتور ، ثم أعقبت
وهي تجار كالنمرة الغاضبة :

— وهذه عنوانين جنودكم ، وأرجو أن
تذكروا حين إرسالها إلى أمهاتهم : أنى أنا التي
حرقت فلذات أكبادهن ، وليكن توقيعها هكذا :
« انتصار سيمون المتوحشة »

لم يستطع الضابط أن يملك غضبه أمام وقاحة
هذه العجوز وتشفيها ، فأمر بجنوده فاستاقوها إلى
جدر من كوخها يوشك على الانطفاء ، ثم اصطف
حولها على بعد عشرين متراً اثنا عشر جندياً ، وبرغم
أنها أدركت ما يراد من هذا العمل لم تبد حراكاً
ولا استمدت لدفاع عن نفسها

وهنا ارتفع صوت الضابط بأمر الجنود بإطلاق
النار دفعة واحدة .

لم تسقط المرأة كتلة دامية ، ولكن رصاص
البنادق قصف ركبتيها ، فهوت إلى الأرض
صريعة ، تحمل في يدها المتقبضة رسالة ولدها دامية
حراء

قال صديق وقد انتهى من سرد قصته على :
ولكى ينتقم الالمان ويشفون حرهم من القرية ،
هدموا قصرى كما تعلم .

وبينا صديق يقول لى هذا كنت أمثل
لخاطرى ، وأنا أتأمل الكوخ المهدم الحرب ،
شجوا أولئك الامهات اللواتى فقدن أولادهن بين
جدرانها المتهبة . ثم أعجب وأدهش لهذه البطولة
الشرسة التى أبدتها الأم التالكل ساعة الموت وحين
تلقت رصاص الجنود

كمال الحبرى

وفى وسط هذا الهرج والمرج كنت تسمع
إرنان جرس يدوى من بعيد ، منذراً بالخطر وداعياً
النجدة ، بينما الأم المتوحشة عالقة البصر إلى
الكوخ وقد تنكبت بندقية ولدها ، وفى نفسها
أن تطلق الرصاص على كل واحد من هؤلاء الأربعة
يسعده جده فينجو من الجحيم اللاهب . حتى إذا
اطمأنت إلى أن كل شىء قد انتهى إلى ما ترغب
ألقت بسلاحها إلى النار المندلعة ، وتسلفت جذع
شجرة ثم راحت ترقب الحريق وادعة ساكنة .
وأهرع من القرية رجال للنجدة ، وفلاحون
لاستطلاع الخبر ، وجند من الالمان للتحقيق ، وكان
على رأسهم ضابط يتقن الفرنسية كأحد أبنائها ، قال
لها : أين جنودنا الأربعة أيها العجوز ؟

فمدت الأم المتوحشة يدها المعروقة الهزيلة ،
ثم أشارت إلى الحريق الذى بدأت تتمد ناره ،
وأجابت بصوت هادى قوى : هناك هناك .

فأحرق بها الجند ، ثم سألها الضابط :
— ومن كان للسبب فى إضرام النار ؟ فأجابت
المرأة وفى لهجتها التشفى والحنق :

— أنا ... أنا ...

ولم يصدق الضابط قولها وظن النكبة عصفت
برأسها ، فأمر جنوده فسدوا أمامها طريق النجاة ،
غير أنها استسلمت إليهم ، ثم أخذت تقص عليهم
حكاية حالها منذ اليوم الذى استقبلت فيه الجنود
الأربعة ، حتى هذه الساعة التى تشفى فيها غيظها
تأخذ بثأرها من كل ألمانى

فرغت من قصتها وأخرجت من جيبها ورقتين
مطويتين راحت تبين كلاً منهما على ضوء الحريق
مستعينة بمنظارها ، قالت وهى تفرد إحداها :